دور المرأة المغربية في الحياة العامة من الفتح حتى القرن الخامس الهجري

د. لمياء عز الدين الصباغ*

تاريخ التقديم: 2011/4/24 تاريخ القبول: 2011/6/29

الملخص:

يهدف البحث إلى رسم صورة للمرأة المغربية في الحياة العامة من الفتح حتى القرن الخامس الهجري، ولتسليط الضوء على الأدوار والمجالات التي ساهمت فيها المرأة إبان هذه الفترة.

لقد أغفلت المكتبة العربية الدراسات التي تتناول حياة المرأة المغربية في مجالاتها المختلفة، مقارنة بنظيراتها في المشرق إذ استوفت حقها من البحث ولاشك أن تاريخ المرأة المغربية حافل بالنشاطات السياسية والاجتماعية، فقد قدمنا صورة واضحة عن دورها المشرف.

المرأة في المشرق العربي قبل الإسلام وبعده:

كان للمرأة العربية حضور بارز ومشهود في المجتمع العربي القديم أفضل بكثير من حظها في المجتمعات الأخرى كالفارسية واليونانية والرومانية[1].

فقد أسندت إلى بعض النساء في الجزيرة العربية مناصب عليا، ولعل أشهر امرأة عرفها التاريخ بطهارتها ونبلها وسحرها وقوة التأثير ألا وهي ملكة سبأ بلقيس الثرية التي صور لنا القرآن الكريم تدبيرها وحسن نظرها واعتمادها الشورى في إدارة بلادها [2] قال تعالى ((وأُتيتُ من كل شيء ولها عَرُشٌ عظيمٌ)) والآية

---

* قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(1) الأطرقجي، واجدة محمد عبد الله، المرأة في أدب العصر العباسي، (بغداد: 1981) ص17.

(2) الهمداني، الإكليل، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، مطبعة السنة المحمدية (القاهرة: 1966) ج2/70-71 ؛ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (مصر: 1960) ج1/489-495 ؛ ابن الأثير، عز الدين أبو

((قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون)) [3] كما وردت قصتها في التوراة والإنجيل وعند كل المؤرخين والأقدمين فضلاً عن الأساطير[4]. ومن الأمثلة الأخرى الزباء (زنوبيا) بنت عمرو بن جيان ملكة تدمر والتي تربعت على عرش الجزيرة في العراق لمقدرتها ومهارتها وأوسعهن إدراكاً وحكمة وأجلهن خلقاً وأكثرهن دوراً مميزاً عندما أثارت الرومان حيث زحف إليها الإمبراطور الروماني أوريليانوس وأسرها فقد ترك أسرها صداً عميقاً في نفوس التدمريين بعدها فتحت أبواب تدمر أمام الرومان في بداية سنة 273م[5].

وقد سلط الضوء قبل الإسلام على بعض النساء اللواتي كان لهن شأن كبير اجتماعياً لا يستهان به في المجتمع وعلى سبيل المثال لا الحصر خديجة الكبرى زوجة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الزوجة المخلصة والصالحة والمرأة العاملة الرزينة التي عاصرت الجاهلية والإسلام وكان لها وقع ممتاز حتى سميت بالطاهرة حيث جمعت بين المال والجمال والكمال، كان بينها وبين الرسول (صلى الله عليه وسلم) علاقات اقتصادية (تجارية) والزوجة البارة التي كانت أول من آمنت بالله ورسوله وساندته بنفسها ومالها [6]، وزينب بنت الرسول (صلى الله

الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ (بيروت: 1965) ج1/230–238 وينظر حسن علي إبراهيم، نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب (القاهرة: 1970) ص9.

(3) القرآن الكريم، سورة النمل، الآيتان 23 و 32.

(4) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج1/ 490.

(5) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: 1969) ج3/123 ؛ وينظر، حسن، نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، ص 18 ؛ عباس، فائزة حمزة، دور المرأة الأندلسية في الحياة العامة، رسالة ماجستير غير مطبوعة، جامعة الموصل (كلية الآداب: 1989) ص23.

(6) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: د، ت) ق 1817/4 ؛ ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (طهران: د، ت) ج5/434 ؛ الذهبي، شمس الدين ابن عبد الله، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، ج 3/61–62 ؛ الغزالي، محمد، المرأة في الإسلام (مصر: د، ت) ص 19 و20 ؛ جاسم، المفهوم التاريخي لقضية المرأة ، ص 67.

عليه وسلم) وفاطمة أم السبطين وصفية بنت عبد المطلب، وأم سلمة وعائشة أم المؤمنين المعروفة بنشاطها الديني والسياسي [7] وغيرهن فقد أشارت المصادر الأدبية والتاريخية إلى العديد من الشاعرات العربيات اللاتي برزن في مجال الشعر [8] والطب [9] وغيرهما.

من كل هذا نلحظ أن الإسلام ساوى بينها وبين الرجل ونص على حسن معاملة الرجل لزوجته، فلم تعرف البشرية ديناً ولا حضارة عنيت بالمرأة أسمى وأجمل عناية، وأتم رعاية وأكمل اهتمام كتعاليم الإسلام تحدثت عن المرأة وأكدت على مكانتها وعظيم منزلتها، فقد لاقت المرأة في ظل الإسلام كل هذه الرعاية فلا غريب أن تجاهد من أجل هذا الدين وتقوم في حمايته[10].

وإذ كانت أحوال المرأة في المشرق العربي حيث مهبط الوحي على محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد تغيرت بالتعاليم الجديدة وبما يرسخ المكانة اللائقة التي يجب أن تتبوأها المرأة في المجتمع الإسلامي فإن أوضاع المرأة في المغرب العربي ظلت على حالها من البؤس والشقاء والبداوة، وذلك لتأخر عمليات حروب التحرير في المغرب إلى أن وطأ المسلمون أرض المغرب وتوجهوا لإزالة الظلم والتعسف والضلالات ومظاهر الشرك بالله وعلموا البربر نساءً ورجالاً مبادئ الدين الإسلامي الحنيف وبدأت الناس يخرجون من الظلمات إلى النور.

دور المرأة المغربية في الحياة العامة:

---

(7) للمزيد من المعلومات ينظر الأصبهاني، علي بن الحسين بن محمد القرشي، الأغاني، نشر صلاح يوسف الخليل (بيروت: 1970) ج14/34–35 ؛ وينظر، حسن، نساء لهن في التاريخ الإسلامي، نصيب، ص 25.

(8) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس (بيروت: 1966) ج4/137 ؛ جواد علي، المفصل، ج8/790 ؛ بيهم، المرأة في التاريخ والشرائع، ص 141.

(9) زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، مراجعة وتعليق، شوقي ضيف، (دار الهلال، 1957) ج1/40.

(10) آل الشيخ، حسين بن عبد العزيز، المبادئ العامة لمكانة المرأة في الإسلام (المدينة المنورة: 1427هـ) ص 3.

منذ الأيام الأولى من حروب التحرير العربية سنة 22هـ/643م ضمت القوات العربية التي دخلت المغرب العربي بين فصائلها عدد من الصحابة والتابعين[11]، فكان لهؤلاء دور كبير في بذر أول بذور الفكر العربي الإسلامي في تلك البلاد واتخذوها وطناً لهم فمثلاً القيروان أصبحت قاعدة لاجتذاب العناصر العربية وغير العربية مما انصهرت فيما بعد في بوتقة الثقافة [12]، ومن ثم تونس حيث استقروا فيها بعد أن جلبوا عيالهم وأقاربهم وعشيرتهم يختطون الدور والمساجد، كما جرت العادة عند الفتح، مما شجع هؤلاء المجاهدين العرب رغبة في نكاح النساء من أهالي هذه البلاد المفتوحة فكانت المصاهرة هي الرابط الوحيد في توثيق أواصر الصداقة والصلة ونبذ الخلافات وترك الضغائن والأحقاد[13].

وبهذه السياسة تمكن العرب الفاتحون من الانصهار مع القبائل العربية البربرية فمنذ اللحظة الأولى لدخول عمرو بن العاص سنة 22هـ/ 643م وتحرير برقة بصلح على أهلها واشترط عليهم ديناراً لكل حالم [14] وكتاب الصلح أمراً لم يعهد بعد حسب رواية الليث بن سعد كتب عمرو بن العاص على لواتة من البربر

(11) أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، طبقات علماء افريقية وتونس، تقديم علي الشمري ونعيم حسن الياخي (الدار التونسية: 1968) ص65 وما بعدها ؛ المالكي، أبو بكر بن عبد الله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، (بيروت: 1981) والنسخة الثانية تحقيق حسين مؤنس، مكتبة النهضة العربية (القاهرة: 1947) ج61/1.

(12) المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي غويه (ليدن: 1906) ص196.

(13) عبد الوهاب، حسن حسين، شهيرات تونسيات (تونس: 1917) ص 10.

(14) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال (ليدن: 1948) أعيد الطبع بمطبعة بيروت: 1980) ط2، ج8/1.

في شرطه عليهم أن ((عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية))[15] وهذا الأمر كما يشير سعد زغلول وكان اختيارياً، وجاء في هذا الكتاب أمران أولهما أن عمرو عرف فقر اللواتين وتخوف من عدم مقدرتهم على أداء الجزية، والثاني أخذ صغار لواتة من البنين والبنات لتربيتهم في كنف العرب كان يحقق لهم تنشئتهم تنشأ على العقيدة الإسلامية، ونشر الدين عمل من أعمال البر والتقوى، ثانيهما اجتماعي بتعريبهم عن طريق اللغة العربية وتربيتهم على العادات والتقاليد ثم التزاوج معهم وتوثيق أواصر الصلة بين العرب والبربر[16].

وهنا لابد من الإشارة إلى أن البنات بصفة خاصة على ما يؤيده كتاب الخليفة عمر بن عبد العزيز (100هـ/719م) في قوله (في اللواتيات) ((أن من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها او فليردها إلى أهلها)) هذا يعني أن دفع البنات في جزية لواتة ظل معمولاً به إلى أواخر القرن الأول الهجري[17].

ويمكن القول إن الجيوش العربية الإسلامية التي دخلت المغرب قد اصطحبت معها النساء وهذا عبد الله بن عمر بن الخطاب (رض الله عنهما) عندما دخل أفريقية سنة 45هـ/665م مع معاوية بن حديج كان معه أم ولده فولد له منها صبية اسماها زينب حفيدة الخليفة عمر بن الخطاب ثم توفيت فدفنها بالمقبرة التي تعرف الآن بمقبرة قريش نسبة إلى تلك الفتاة القريشية (زينب) وما زال ضريحها ماثلاً في تلك المقبرة وقد قيل فيها.

فسقاك الإله وابل غيث يا ضريحا يضم مجداً اثيلا[18]

---

(15) البلاذري، أحمد بن علي بن جابر، فتوح البلدان، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان (بيروت: 1978) ص225 ؛ ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، نشر شارلس دوري (نيوهيفن: 1922) ص170.

(16) تاريخ المغرب العربي (الإسكندرية: 1979) ص 132.

(17) البلاذري، فتوح البلدان، ص 225.

(18) أبو العرب، طبقات، ص18 ؛ المالكي، رياض النفوس، ج 62/1 ؛ الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق إبراهيم شروح (القاهرة: 1968) ج83/1. ويشير بقوله مقبرة قريش بباب سالم. وينظر: عبد الوهاب، شهيرات تونسيات، ص 16 و 17.

لا يمكن تعميم هذه الرواية على بقية أفراد الجيش العربي الإسلامي الذي جاء للفتح والتحرير، إذ من المحتمل أن يكون القادة والصحابة التابعيون قد جاءوا بأهليهم ولكن لم تذكر المصادر التاريخية عنهم أي شيء خلال هذه الفترة، وكان شغلهم الشاغل هو التحرير ونشر الإسلام، وكذلك عدم معرفتهم البلاد معرفة دقيقة قياساً بمصر التي فتحت سنة 21هـ/651م فضلاً عن عدم وجود قاعدة عربية لتكون مركزاً لسكن الجند وعوائلهم حتى سنة 50هـ/670م عندما قام عقبة بن نافع الفهري بتأسيس مدينة القيروان [19]، وعلى اثر ذلك كان من المألوف أن نجد العرب يتخذون الأرض ويختطون دورهم فيها، ومن نتيجة هذا البناء استقرار بعض الصحابة والتابعين فيها مما هيأ لهم ولعوائلهم الاستقرار.

كرم المرأة:

في سنة 45هـ/665م كانت سياسة الموآخاة والمواساة الشعار الذي رسخ به القائمون أقدامهم في المغرب فهذا عبد الملك بن مروان قد بعثه معاوية بن حديج السكوني لفتح حصن جلولاء في ألف فارس ففتحها فبينما هو سائر تخلف عن كتيبة الفرسان، فإذا به يظل الطريق فالتجأ إلى كوخ وجد فيه امرأة بربرية نزل عليها فأكرمت وفاتده وأعطته الزاد وأدت واجب الضيافة، لاسيما والحادثة هذه في فصل الشتاء وعند الصباح زودته تلك المرأة بما حضرها من طعام ودلته على الطريق، وعاد إلى رفاقه، وعندما أنتخب خليفة للمسلمين أرسل إلى عامله على أفريقية فأمره بالبحث عنها وبإجراء نفقة لها وأعفاها من الخراج لإكرامها لرجل عربي[20].

---

(19) البلاذري، ص 228 ؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج240/5.

(20) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر أخبار أفريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك، نشره دي سلان، الجزائر 1857، ص 32 ؛ ابن الآبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط 1 (القاهرة: 1963) ج30/1 ؛ وينظر، عبد الوهاب، شهيرات تونسيات، ص 15 ؛ الثعالبي، عبد العزيز، تاريخ شمال أفريقية(من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية) جمع وتحقيق

يمكن القول إن قوة شكيمة العديد من النساء العربيات في بلاد المغرب العربي وموقفهن القومي في أحداث العصر الأموي وما بعده هو انعكاس للعادات والتقاليد الموروثة التي كانت تتمتع بها المرأة في المجتمع العربي في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وما تهيأ لها في ظل الإسلام من حرية وسمو اجتماعي وثقافي، وقد برز ذلك في المرأة العربية من مقدرة كبيرة وكفاءة عالية في دفع عجلة الحياة السياسية وحكم البلاد، فقد تحلت المرأة في كثير من المواقف والبطولات برأيها ومشورتها وإدارة دفة الحكم معاونة أخاها الرجل، ولم تكن المرأة بعيدة عن أجواء الحروب فقيادة الجيوش لم تقتصر على الرجال من البربر فحسب وإنما شاركت فيها المرأة المغربية فقد كانت المرأة البربرية على جانب كبير من العصبية فهي تحارب جنباً إلى جنب زوجها[21].

الكاهنة ملكة جبال أوراس:

بعد مقتل كُسيله بن لمزم في سنة 69هـ/688م على يد زهير بن قيس البلوي ودخول الفاتحين أرض المغرب [22] وبالتحديد سنة 74هـ/ 693م برزت شخصية نسوية بربرية من قبيلة جراوة الزناتية قيل إنها الكاهنة، ملكة جبال أوراس[23] وجميع البربر في تلك المناطق كانوا يدينون لها بالولاء والطاعة [24]. وكانت تتمتع بمزايا قيادية فقد كانت مسيطرة على قبيلتها سيطرة تامة استطاعت

د. أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، تقديم ومراجعة حمادي الساحلي، دار المغرب الإسلامي، ص 41 و 42.

(21) الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب في المغرب العربي (دار الجيل لبنان: 1996) ص 34.

(22) الرقيق القيرواني، إبراهيم بن القاسم، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق، المنجي الكعبي، (تونس: 1967) ص 47 ؛ ابن الأثير، الكامل، ج 108/4 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج31/1.

(23) المالكي، رياض النفوس، ج32/1 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 370/4.

(24) الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، ص 55 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج35/1.

أن تثير البربر وتحفزهم على القتال والإقدام [25]، فقد أرادت أن تحقق للبربر استقلالاً سياسياً ومجداً حربياً وأن تضرب مثلاً شروداً ببسالة المرأة البربرية وبعبقريتها الفكرية والسياسية[26]، وقد ملكت أمر البربر مدة قاربت خمس وثلاثين سنة وأصبحت لها الزعامة بعد مقتل كسيلة، وبعض المصادر تجعل للكاهنة دوراً في استشهاد عقبة بن نافع وصحبه في واقعة تهوذة، ويذكر الناصري أن لها ثلاثة أبناء ورثوا رئاسة قومهم عن أبيهم، ولما كانوا صغاراً فقد تولت الحكم نيابة عنهم حتى استبدت به دونهم[27]، وانقادت لها جموع البربر بما كانت تمتلك من القدرات الخارقة فقد قيل عنها إنها كانت تتنبأ بالمستقبل وتعتمد السحر وأعمال الشعوذة[28] وكانت الكاهنة وقومها على الوثنية [29] وبعض المصادر تشير إلى أنها كانت تحتفظ بصنم كبير مصنوع من الخشب يرافقها حيث تحل [30] وما يقال بعد ذلك عن كونها يهودية يُعد احتمالاً ضعيفاً لا تؤيده القرائن التاريخية [31] وقد حاول جوتييه أن يثبت أن (الكاهنة) اسم علم أصله فينيقي وعد كلمة الكاهنة عبرية لا

(25) حمودة، عبد الحميد حسين، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح حتى قيام الدولة الفاطمية ط1 (القاهرة: 207)، ص91.

(26) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج149/1.

(27) الاستقصا، ج 93/1 ؛ وينظر، مؤنس، حسين، فتح العرب للمغرب (القاهرة: 1947) ص243 ؛ موسى، إقبال، المغرب الإسلامي، ط1 (قسنطينة:1969)، ص76.

(28) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 110/4، وينظر مؤنس، فجر الأندلس (القاهرة: 1959) ص43 ؛ أبو عزيز، يحيى، موجز تاريخ الجزائر (الجزائر: 1965) ص 83 ؛ العبادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلسي (بيروت: 1971) ص 253 ؛ عبد الوهاب، حسن حسين، شهيرات تونسيات (تونس: 1966) ص 18 ؛ حسن، علي حسن، تاريخ المغرب العربي عصر الولاة، ط1 (القاهرة: 1977)، ص 52.

(29) عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج 217/1 ؛ العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 226.

(30) المالكي، رياض النفوس،ج35/1 ؛ الدباغ، معالم الإيمان، ج 66/1 ؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس (بيروت: 1975)، ص 66.

(31) مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 344.

عربية وأنها مؤنث كوهين، وهذا غير مستقيم أساسه العبث بالألفاظ، فلفظة الكاهنة قد أطلقها العرب على ملكة جبال أوراس[32] لأنها كانت تخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سميت بالكاهنة[33].

وهناك من ينكر أصلاً وجود الكاهنة معتمداً على ما يشوب شخصيتها من المسحة الأسطورية ويزعم ليبو Lepio مثلاً أن الكاهنة ما هي إلا البطريق يوحنا نفسه، وهو يقول: ((أحاط العرب 000 قصة هذه الثورة (تمرد الكاهنة) بجو من الخيال فهم يذهبون كما تزعم رواياتهم إلى أن هناك ملكة للبربر الكاهنة تمكنت من هزيمة العرب أول الأمر، وهذه الكاهنة – كما تبين لنفر من العلماء الثقاة – ليست إلا البطريق يوحنا نفسه، أظهره المؤرخون في شكل امرأة لأنه كان خصياً)) [34].

وقد ناقش حسين مؤنس هذه المقولة وأشار إلى أن العلماء الثقات الذين اعتمد عليهم ليبو Lepio كان في مقدمتهم أوتر Otter ثم قال عن قضية البطريق: ((وهذا مذهب لا يقل خيالاً أو خطأ عن روايات المؤرخين المسلمين الذين سخر منهم فعلاوة على ما سيتضح بعد ذلك من أن البطريق يوحنا وحملته مذكوران في الكتب العربية بوضوح إلى جانب قصة الكاهنة، فقد أكد فورنل Fournel أن ليبو اختلق على أوتر ذلك القول إذ لم يقل الرجل منه شيئاً))[35].

وتأسيساً على ما سبق فلا يمكن أن تعد الكاهنة مجرد أسطورة لا وجود لها في الحقيقة، كما لا يمكن أن تعد وقومها على الديانة اليهودية لأنهم من البتر وأساس معتقدات هؤلاء يقوم على الوثنية مع وجود الدليل الذي ذكره المالكي وغيره من المؤرخين[36].

---

(32) مؤنس، فتح العرب للمغرب، هامش رقم 3 ص 345 نقلاً عن
Gautier, EI Le Passe de I Afrique du Nord (Paris: 1937) P. 245.

(33) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4/ 370.

(34) مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 242 وهامش 2.

(35) فتح العرب للمغرب، ص 242.

(36) رياض النفوس، ج35/1 ؛ الدباغ، معالم الإيمان، ج66/1.

فالكاهنة كانت زعيمة من زعماء جبال أوراس ينضوي تحت نفوذها العديد من القبائل وفي مقدمتها قبيلتها جراوة [37]. وقد جمعت قوات كبيرة تصدت بها للقوات التي قادها حسان بن النعمان (74هـ–86هـ/693م–705م).

ويتضح من أقوال المؤرخين دهاء هذه المرأة السياسي والعسكري إذ إنها أحسنت استغلال ميدان الحرب وأرض المعركة التي هي أرضها عبر تحصنها في جبال أوراس فقامت بأعمال من شأنها حرمان حسان من مصادر لتموين والتزود بالأقوات فدمرت حصن باغاية كي تمنع حسان من الاعتصام[38].

– المرأة والسحر:

يبدو أن أصول الكهانة كانت متأصلة عند النساء البربريات خاصة، إذ إن الكاهنة لم تكن وحدها في هذا الميدان بل شاركتها نساء أخريات جارينها في الكهانة، مثل تالية التي حدثنا عنها الناصري وبجانبها حاميم " المتنبئ يقول ((وكانت تاليه هذه امرأة كاهنة ساحرة، وكان حاميم المتنبئ ببلاد غمارة الذي كان يلقب بالمفتري، وكانت أخته " دجّو ساحرة كاهنة من أجمل الناس وكانوا يستغيثون بها في كل حرب وضيق ويزعمون أنهم يجدون نفعها))[39].

وقد لاقت دعوة حاميم معارضة ومقاومة شديدة إذ هجا العديد من الشعراء هذا المتنبئ (حاميم) وكذلك من وقف بجانبه، فقد أشار البكري أبياتاً من الشعر التي نظمها عبد الله بن محمد المكفوف الطنجي:

وقالوا افتراء: أن حاميم	اليهم بدين واضح الحق
فقلت: كذبتم بدد الله شملكم	فما هو لنا عاهر وابن
فإن كان حاميم رسولاً فأنني	بإرسال حاميم لأول كافر

(37) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الخضرمي، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت: 1971) ج109/6.

(38) المالكي، رياض النفوس، ج33/1 ؛ الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 56 ؛ الدباغ، معالم الإيمان، ج62/1.

(39) الاستقصا، ج152/1.

رووا عن عجوز ذات افك تفاوق في أسحارها كل
أحاديث افك حاك إبليس يسرونها والله مبدي

وعلى الرغم من قتل هذا المتنبئ في الحروب التي جرت بين قبائل مصمودة بأحواز طنجة سنة 315هـ/927م إلا أن السحر استمر في قومه بمنطقة غمارة وبين قبائلها ومازالوا على عاداتهم وتقاليدهم يفعلون السحر والشعوذة والتنبؤ بالغيب من أجل التحكم في حظوظ الناس، وأن أكثر منتحلي السحر في المغرب هم من النساء العجائز مثل عمة حاميم وغيرها إذ تظهرن بتطبيق التعاليم مما تتعلق بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة البربرية والصلاة والصوم والحج وبعض أمور الطعام وآدابه من حل وتحريم[41].

وعلى الرغم من تمتع النساء بمكانة خاصة نتيجة معرفتهن واتصالهن بالأمراء والقواد من زعماء البربر، إلا أن الأكثرية العظمى منهن كن يعانين الاستبداد والعبودية والظلم والاستغلال، فقد كانت المرأة تعامل ببالغ القسوة من قبل البربر أنفسهم، وذلك لعدم تمكن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف منهم والذي يؤكد على عدم احترام المرأة من نفوسهم فهم إلى ذلك العهد لا زالوا متمسكين بالعادات والتقاليد القديمة البدائية البسيطة وأن بقايا البدع والضلالات والانحرافات منتشرة بينهم حتى أزالها المرابطون (448هـ - 541هـ) (1056م – 1146م)، ويشير البكري بقوله ((إن أحد أولاد حاميم واسمه عيسى، كان لا يزال مبجلاً في قومه غمارة، وأن الإباحية بين النساء كانت مطلقة، وأن الرجال كانوا يربون شعورهم كالنساء ويتخذونها ظفائر، ويطيبونها ويتعممون بها)) [42]. وعندما دخلت القوات الإسلامية بلاد المغرب نجد الثوار البربر ذوي العقلية البربرية ممن تستهويهم النساء وميلهم إلى الحياة البدائية إذ لا ضوابط أو حدود للشرع تضبط علاقة الجند

(40) البكري، المغرب، ص 100–101 ؛ وينظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج192/1.
(41) البكري، المغرب، ص 100–101 ؛ وينظر البيان المغرب، ج 1/ 192 ؛ عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، (الإسكندرية/ 1990) ج210/3 و 211.
(42) البكري، المغرب، ص 102 ؛ القادة، إبراهيم، صورة المرأة في الشعر المغربي (الجزائر: 2009) ص59–60 .

ببعض البربريات، فقد وضعوا المرأة سلماً وجعلوها في متناول الجند أثناء الغارات على المدن والقرى ليرتقوا بالنصر على القيادات، فكثرة الحروب والترحال جعلتهم يضمنوا ولاءهم واستمرارهم في القتال، فهذا صالح بن طريف ظهر في خلافة هشام بن عبد الملك سنة 105هـ–125هـ/724م–743م يتنبأ هو الآخر ويضع لهم شريعة جديدة تملؤها البدع والضلالات في جميع جوانب الحياة ولاسيما الناحية الاجتماعية وما أقره من أحكام تخص المرأة، فهو لا يختلف كثيراً عما جاء به المتنبئون الآخرون من أمور تسيء إلى المرأة وتزدريها فقد ((أباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء، ولا يتزوج من بنات عمه، ويطلقون، ويراجعون ألف مرة في اليوم فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك))[43].

وهذا ما أكده المستشرق الفرد بل ومستغرباً من هذا المتنبئ وتعاليمه التي يزعم أنها مستوحاة من الشريعة الإسلامية.

والحقيقية أن مثل هذه الشرائع باطلة لا صلة لها بالدين الإسلامي الحنيف إنما شرعت لتخدم مصلحتهم وهي بعيدة كل البعد عن الإسلام وتنظيم علاقاتهم الاجتماعية بقوله ((أما عن قواعد القانون المدني الشخصي والاجتماعي، فإن ما تعرفه عنها يختلف كثيراً عما يناظرها في الشريعة الإسلامية، فمثلاً للمرء أن يتزوج أي عدد من النساء بدلاً من أربع كما تقضي الشريعة الإسلامية، وفي مقابل ذلك لا يحق له أن يتزوج بنت عمه، وهو أمر شائع جداً لدى أهل السنة البربر والعرب. وكذلك حرم الزواج بين أتباع هذه الديانة رجالاً ونساءً وبين المسلمين رجالاً ونساءً وحرم التسري بالجواري، في حين التسري مباح في الإسلام))[44].

المرأة المغربية وأحداث المغرب:

(43) ابن ابي زرع، علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط: 1972) ص 331 ؛ الناصري، الاستقصا، ج115/1.

(44) الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عن الفرنسية عبد الرحمن بدوي ط3 (بيروت: 1987)، ص178.

إن الامتزاج والتداخل بين العنصر العربي والعنصر البربري بالمصاهرة من النساء البربريات كونهن وصفن بالوصائف البربريات الجميلات وهناك إشارة نقلها لنا الاصبهاني صاحب كتاب النساء قال ((كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله على أفريقية (وهو عبيد الله بن الحبحاب) أما بعد فإن أمير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به موسى بن نصير إلى عبد الملك بن مروان رحمه الله أراد مثل منك وعندك من الجواري البربريات المالئات الأعين الآخذات القلوب ما هو معوز لنا بالشام وما والاه فتلطف في الانتقاء وتوخ أنيق الجمال ومع ذلك فاقصد رشدة المولد وطهارة المنشأ، فإنهن يتخذن أمهات أولاد، والسلام))[45].

هذا ما كان يكتب خلفاء الدولة الأموية إلى عمالهم على أفريقية، مما ثارت ثائرة البربر كما ذكر السيد عبد العزيز سالم ((كانت نفوس البربر تعلى لهذه المظالم في الوقت الذي انقسم فيه العرب إلى عصبيتين يمينية وقيسية))[46]، وهكذا تفاقمت الأحوال وازدادت سوءاً في عهد عبيد الله بن الحبحاب (116هـ/734م) وصولاً إلى عهد حنظلة بن صفوان (124هـ/742م) حيث ازدادت نقمة العرب البربر على ولاة بني أمية بالمغرب الذين أساؤوا السيرة وخاصة في أمر امتهانهم النساء البربريات بقصد الحصول على رضي الخليفة ذلك أن الخلفاء وأولادهم في المشرق كانوا يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل أفريقية، فيبعثون لهم البربريات السنيات[47] وهذا مما أدى إلى نقمة البربر، فخرجوا قاصدين الشام متجشمين عناء السفر لإبلاغ الخليفة أمير المؤمنين هشام بالإهانة كما يشير الطبري بقوله إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا

(45) أبو الفرج الأصفهاني، نقلاً عن، عبد الوهاب، شهيرات تونسيات، ص 11.

(46) المغرب في العصر الإسلامي، ص 214.

(47) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 50/1 و 51 ؛ القادة، صورة المرأة في الشعر المغربي، ص 58 و 59.

لم نجد هذا في كتاب ولا سنة نحن مسلمون، فجئنا أن نعلم رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا [48].

وعلى الرغم من التسويغات التي ذكرناها، فلا يمكن لهذا الخارجي أن يمتهن المرأة بهذه الطريقة التي لا تقل مهانة عن امتهان من سبقهم.

ولابد من الإشارة إلى وعي المرأة بتأثي ر الأحداث السياسية عليها وعلى قومها، فنراها تشحذ همم وعزائم المقاتلين الرجال وتشد من أزرهم، لأن انتصارهم يعني سلامتها ودوام عزها ورفعتها وانهزامهم فيلحق بها الويلات والسبي والمهانة.

ويحدثنا التاريخ عن شواهد خالدة للمرأة، ومساهمتها الفعالة في تغيير مجريات الوقائع والأحداث السياسية وذلك حين انتقال المذاهب الإسلامية من المشرق العربي إلى بلاد المغرب بعد اضطهاد الأمويين لأتباعهم، وظهور المذهب الصفري وهم من غلاة الخوارج والذين فجروا الحروب والفتن في بلاد المغرب العربي على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ويولي الخليفة حنظلة بن صفوان سنة (124هـ/741م) ويقدم إلى القيروان، فلم يمكث بها يسيراً حتى زحف إليه قائدان صفريان هما عكاشة بن أيوب الفزاري عربي الأصل، وحليفه عبد الواحد بن يزيد الهواري بربري الأصل وكان قد اتفقا على أن يجتمعنا بالزاب، وعرض خطتهما، فأسرع بلقاء عكاشة وهزمه هزيمة ساحقة، وقطع الطريق عليه، وتقدم عبد الواحد إلى القيروان فاستشار حنظلة فقهاءها فخرجوا مع جيشه لمنازلته، وخرجت معهم نساء القيروان حاملات السلاح مستبسلات للموت مع الجيش [49]، ويشير الرقيق القيرواني بقوله ((وكانت النساء قد ركبن ظهور البيوت بالقيروان

(48) تاريخ الرسل والملوك، ج 254/4 و 255، وينظر ابن الأثير، الكامل ج 93/3. دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا، ترجمة حسن حبشي ومراجعة جمال محرز ومختار العبادي (مصر: 1963) ص144.

(49) الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 115 وما بعدها ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج58/1، ينظر، عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج302/1 وما بعدها.

فإذا رأين الغبار سائراً إلى الجبل كبرّن وسجدن، وإذا رأينه مقبلاً صرخن واستغثن فبعث حنظلة البشير بهزيمة البربر))[50].

ومن المعروف أن الخوارج الصفرية كانوا يستحلون المحارم لذلك ((أقام العلماء بدور كبير في حث أهل القيروان على الجهاد وقتال الخوارج، وذكروهم بما يفعلونه بالنساء من السبي، وبالأبناء من الاسترقاق وبالرجال من القتل، فكسر الرجل أجفان سيوفهم، وخرجت النساء تحث الرجال على الصمود في ميدان القتال))[51].

ومن هنا نرى أن سكان المغرب قد تأثروا بالتيارات السياسية المختلفة التي دخلت أرضهم، وأن بعض البربر كانوا متحمسين باسترجاع أرضهم من قبضة بني أمية ومعارضيهم من الخوارج، ويشير الفرد بل أن واقع الحياة في المغرب وطريقة تفكير البربري والعوامل التي أدت إلى اعتناقه مبادئ خارجية [52] معتمداً على رأي دوزي في كتابه تاريخ مسلمي اسبانيا بقوله ((وجرى عكس هذا الأمر من جانب سكان أفريقية الشمالية الذين تلقوا كل هذه الآراء في حماسة لا توصف، ولما كانوا قوماً سذجا جاهلين، فإنهم لم يفهموا بطبيعة الحال هذه العقائد التأملية الدقيقة التي تطرب لها العقول المثقفة، ومن ثم لم يكن من المجدي إعادة البحث عن أفضل الجماعات للاتصال بها، فلم يكن يهمهم أن تكون هذه الجماعة حرورية او صفرية أو أباضية، لأن المؤرخين ليسوا على اتفاق فيما بينهم حول هذا الموضوع، لكنهم فهموا هذه العقائد فهماً قوياً لاحتضان الأفكار الثورية والديمقراطية ولمشاطرة الأهواء الخيالية التي تزكي جهابذتهم ولتقنعهم بأن مضطهديهم ملعونون وستكون النار مأواهم 000 ومن ثم لم يكن من الإجرام أن يثوروا ضد الطاغية الذي سلبهم متاعهم ونساءهم، وعدوا ذلك حقاً وواجباً عليهم)) [53].

---

(50) تاريخ افريقية والمغرب، ص 117.

(51) حمودة، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص 163.

(52) الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 146.

(53) ص146 و 147. وينظر، الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 146.

وكان انجذاب دعاة الخوارج إلى المغرب ومنذ وقت مبكر لأنها بعيدة عن قبضة بني أمية، وكان سكانها يقاومون الولاة العرب بحماس، فاستطاعوا أن يجدوا فيها مبتغاهم فهي التربة الخصبة لبذر أفكارهم ومبادئهم وكما يشير الناصري بقوله: ((وصف موقعها لديهم بسبب ما كانوا يعانونه من ثقل وطأة الخلافة القريشية وجور بعض عمالها فلقنهم أهل البدع (أي الخوارج) أن الخلافة لا يشترط فيها القريشية بل ولا العربية وأن كل من كان اتقى لله كان أحق بها ولو عبدا ظاهر الحديث، ودسوا إليهم مع ذلك بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم وأروهم ما هم عليه من التصلب في دينهم فظهر للبربر مبادئ الرأي أن تعمقهم ذلك هو أثر من آثار الخشية لله والخوف فيه))[54].

وعلى الرغم من كل ما ذكرنا سابقاً من آراء مختلفة وأفكار متشابهة بين المؤرخين وذوي العلاقة حول من تقع عليه مسؤولية إهانة المرأة في هذا المجتمع الإسلامي المغربي فلا يكاد يعرف الاستقرار حتى حلول القرن الرابع الهجري عندما دخل الفاطميون أرض المغرب.

(54) الاستقصا، ج 136/1 ؛ وينظر الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 145 و 146 ؛ أبو زيد، حكمت، التربية الإسلامية وكفاح المرأة الجزائرية، (مصر: د.ت) ص 73 و 74 و 75.

- المرأة والجهاد:

حرر الإسلام المرأة مما كانت تعانيه من امتهان، وأعطاها حقوقها كاملة في مباشرة حياتها الخاصة والعامة، ومنذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) شاركت المرأة في الحروب ونهضت بدور كبير في تضميد جروح المقاتلين المسلمين وحثهم على الجهاد في سبيل الله، وفي عهد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) اختلطت النساء بالعامة، لسماع خطب الخلفاء، ومع هذا التطور الذي أصاب المجتمع الإسلامي في العصر الأموي، نجد المرأة تأخذ طابعاً أكثر تطوراً في حياتها الاجتماعية [55]، فنجد على سبيل المثال لا الحصر صحابية من صحابيات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهي أم حرام (27هـ/ 647م)[56] بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر تسير مع الصفوف الأولى لقوات العرب لفتح المغرب، وخاضت معهم البحر لفتح قبرص، إذ يشير ابن خلدون إلى هذه المعركة التي شاركت بها الصحابية أم حرام بقوله ((ثم ألح معاوية على عثمان في تمرد البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم، فاختار الغزو جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر وأبو الدرداء، وشداد بن أوس وعبادة بن الصامت وزوجة أم حرام بنت ملحان، واستعمل عليهم عبد الله بن قيس حليف بني فزارة وساروا إلى قبرص، وجاء عبد الله بن أبي سرح من مصر، فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار لكل سنة 000 وكانت هذه الغزوة سنة ثمان وعشرين وقيل تسعة وعشرين وقيل ثلاث وثلاثين، وماتت أم حرام، سقطت

---

(55) عاشور، سعيد عبد الفتاح، عبد الحميد، سعد زغلول، العبادي، أحمد مختار، موسوعة تاريخ الحضارة الإسلامية العربية (الكويت: 1986) ط2، ص 257 وما بعدها.

(56) أم حرام: صاحبية كانت تخرج مع الغزاة وتشهد الوقائع وحضرت فتح قبرص فسقطت من بغلتها فاندق عنقها، ويشير ابن سعد بقوله على لسانها قالت كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) في بيتي فاستيقظ وهو يضحك قالت قلت يا نبي الله بأبي أنت وأمي مم تضحك قال ناس من أمتي يركبون هذا البحر فالملوك على الأَسرةِ قالت قلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني فيهم قال أنت منهم 000) محمد، كاتب الواقدي، كتاب، الطبقات الكبيرة، عني بتصحيحه وطبعه إدوار وسخو (ليدن: 1321) ج8/ 318 و 319 ؛ الزركلي، الإعلام، ج2/ 172.

عن دابتها حين خرجت من البحر، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) اخبرها بذلك))[57].

من هنا نلحظ المصادر التاريخية قد أغفلت مشاركة النساء المغربيات اللاتي قمن بدور بارز في مرحلة حروب التحرير العربية في المغرب على عكس النساء المشرقيات التي ذكرتهن المصادر التاريخية والتي شاركن في حروب التحرير كما هو بالنسبة لأم حرام حتى يمكن القول إن أصولها مغربية كونها سكنت أرض مصر والمغرب زمناً طويلاً مع بقية الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ويمكن القول إنها اتصلت بالنساء المغربيات وتحدثت معهن الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، والفقه والعبادات وغير ذلك[58].

دور المرأة في السياسة:

أ- كنزة البربرية

ترك موت إدريس بن عبد الله (175هـ- 791م) فراغاً كبيراً في الدولة الناشئة ولغرض ملء هذا الفراغ والمحافظة على كيان الادارسة برز (راشد مولى إدريس) ولعب دوراً كبيراً، فقد رعى راشد جارية إدريس بن عبد الله التي كانت حاملاً في الشهر السابع وتولى إمامة القبائل بعد أن جمعهم وذكرهم فيمن يولي أمرهم فقالوا له ((أيها الشيخ 000 ما لنا رأى إلا ماريت فأنك عندنا عوض عن إدريس تقوم بأمرنا كما كانت وتصلي بنا وتحكم فينا بما يقتضي الكتاب والسنة حتى تضع جاريته، فإن وضعته غلاماً ربيناه وبايعناه وإن وضعت جارية نظرنا في أمرنا أنك أحق الناس به لفضلك ودينك وعلمك)) حتى ولد إدريس بن إدريس[59])، وقد كانت كما يشير ابن عذاري (جارية بربرية)[60] حملت في أحشائها

(57) ابن خلدون، العبر، ج4/ 130 و 131.

(58) القادة، صورة المرأة من الشعر المغربي، ص 69.

(59) ابن أبي زرع، علي الفاسي، الأنيس المطرب، ص24 و 25، وينظر، ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد السلماني، أعمال الإعلام (المغرب في العصر الوسيط)، تحقيق: أحمد مختار العبادي، ومحمد بن إبراهيم الكناني (الدار البيضاء: 1964) ص 191 .

وريث عرش الأدارسة بعد موت والده، فكانت أول امرأة مغربية مسلمة استطاعت أن تسير دفة الحكم فهي الآمرة الناهية في البلاد وحدتها ونظمها بدهائها وقوة تبصرها بشؤون الحكم والسياسة إذ أشارت إلى حفيدها محمد بن إدريس الثاني ضرورة مشاركة أخوته في حكم المدن والقبائل التابعة لدولته [61]. وكما يشير ابن عذاري بقوله ((ففرق البلاد على أخوته بأمر جدته كنزة))[62] فهكذا يمكن القول إن لهذه المرأة فضلاً كبيراً في بقاء الدولة قوية متماسكة بعد أن أوشكت على الفناء وحافظت على معالمها الحضارية من الضياع ((كانت المرشدة والملهمة في تخطيط سياسة الدولة حتى في عهد أحفادها أبناء إدريس الثاني، فكانت المثال الأعلى لنساء المغرب اللواتي تطلعن إلى تقليدها في تربية أبنائهن خاصة وأن كنزة بربرية الأصل))[63].

ب- أم ملال:

اسمها السيدة بنت المنصور بن يوسف الصنهاجي ولدت بقصر المنصورية الذي بناه والدها بصبرة على بعد ميل من القيروان فقد تبوأت مكانة لايستهان بها في قصر الإمارة في كنف والدها صاحب أفريقية وأخيها باديس ولي عهده، إذ تمتعت بمنزلة رفيعة في البلاط الزيري لرجاحة عقلها وسعة رأيها، فبعد وفاة والدها المنصور وتولى بعده أخوها، وكان يعلم تفوقها وإخلاصها [64] لذا

والنص (هذا إدريس بعينه كان لم يمت فسماه راشد باسم أبيه). ينظر ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 25.

(60) البيان المغرب، ج210/1.

(61) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 51 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/ 211.

(62) البيان المغرب، ج211/1.

(63) نصر الله، سعدون عباس، دولة الادارسة في المغرب (182-223هـ/788-835م) ط1، دار النهضة العربية (بيروت: 1987)، 136-137.

(64) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1/ 261 ؛ عبد الوهاب، شهيرات تونسيات، ص 69 وما بعدها.

((أشركها في تدبير أمره وأنتصح برأيها في سياسة الدولة)) [65] بعد غياب أخيها الأمير – نصير الدولة بن باديس بن أبي الفتح – عندما رحل عن القيروان لحرب حماد وصاحب القلعة وجموع الزناتيين ((اخرج عياله وأثقاله وأخته السيدة أم ملال وأولاده وعبيده إلى المهدية)) [66] ولم تدع أية فرصة إلا وقوت سلطتها وبسطت نفوذ إمارتهم ضد هجمات الزناتيين وبني حماد أصحاب القلعة، اذ استغلت أم ملال قوة الفاطميين لبسط نفوذها وقمع خصومها، وبالمقابل حينما بعث أخوها نصير الدولة بهدية إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي بمصر، وقد ((كان فيها مائة فَرَس ولها سرُوجٌ مَحّلاةٌ شدت في ثمانية عشر حملاً أقفاصاً، وكان فيها ثمانية وعشرون حملاً من الخز والسّمُور والمتاع السُوسيّ المذهب النفيس، وعشرون وصيفة، بارعة الجمال وعشرة من الصقالبة وغير ذلك)) [67] وأرادت أم ملال أن تثبت حضورها بوصفها سيدة قصر الإمارة فبعثت في المركب الذي حمل هدية الأمير هديتها والتي وجهتها إلى ست الملك (بنت العزيز بالله الخليفة الفاطمي) [68]، وهكذا كانت أم ملال تشارك أخاها في أعمال الإمارة في تعميق العلاقات الداخلية والخارجية وتوثيق الصلات بين الإمارة والدول المجاورة، وكما يشير عبد الوهاب بقوله ((وتصرفت في الشؤون بحسن تدبير ورأي ثاقب، ولم يقص علينا التاريخ فيما روى أن امرأة مسلمة حكمت أفريقية غير هذه الأميرة الفاضلة)) [69] ولم تشر المصادر التاريخية عن حياة البذخ والترف ومظاهر الأبهة

(65) عبد الوهاب، شهيرات تونسيات، ص 72 ؛ عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج3/380–381.

(66) ابن عذاري، البيان المغرب ج1/ 262.

(67) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1/260و 621 ؛ وينظر عبد الوهاب، شهيرات تونسيات، ص 72.

(68) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1/ 261 ؛ وينظر عبد الوهاب، شهيرات تونسيات، ص 72.

(69) شهيرات تونسيات، ص 74 – 75 .

والتي كانت تعيشها أقرانها من النساء المشرقيات اللاتي عشنا في القصور بل كانت((ذات تربية عالية وأدب غض وعلم جم))[70].

اعتلت السيدة أم ملال بنت عُدةَّ العزيز بالله أياماً والأمير شرف الدولة يصل إليها في كل يوم عائداً ومفتقداً، فيجلس عندها ويأذن لرجاله وعبيده يدخلون إليها، ثم ينصرفون، فلما كانت " ليلة الخميس منسلخ رجب (414هـ/1023م) قبضها الله وصلى على جنازتها بالبنود والطبول والعماريات والسيدتان الجليلتان الوالدة والأخت بحال من التشريف لهذه الجنازة، لم ير لملك ولا لسوقه مثلها"[71].

وعلى كل حال فإن المعز كل ما قام به لأم ملال هو رد للجميل الذي قامت به تلك السيدة الفاضلة للدولة. ولم تكن أم ملال الوحيدة في مغالا ة جنازتها بل سبق وأن كفنت زوجة باديس بجنازة مثلها حينما توفيت سنة (412هـ/1021م) اذ يشير ابن عذاري في وصفه تلك الجنازة بقوله ((توفيت زوجة نصير الدولة، وكفنت فيما لم يذكر أن ملكاً من الملوك كفن في مثله، فحكي من حضره من التجار أن قيمته مائة ألف دينار، وجعلت في تابوت من عود هندي قد رصع بالجوهر، وكانت لها جنازة لم ير مثلها، دفنت بالمهدية وكانت مسامير التابوت بألفي دينار))[72]. فتولت أم ملال وغيرهن من النسوة اللواتي لم تذكرها المصادر التاريخية في شؤون الملك بحسن وتدبير وبرأي ثاقب.

ج- زينب النفزاوية:

في عهد الدولة المرابطية اشتهرت زينب النفزاوية الهوارية زوجة يوسف بن تاشفين التي (كانت امرأة حازمة، لبيبة ذات عقل ورأي وجزالة ومعرفة بالأمور، حتى كان يقال لها الساحرة) [73] ويضف إلى الجمال والذكاء اللذين امتازت بهما،

---

(70) عبد الوهاب، شهيرات تونسيات، ص 71.

(71) البيان المغرب، ج 272/1 ؛ وينظر إدريس، الهادي روجي، الدولة الصنهاجية تاريخ افريقية في عهد بني زيري القرن 10- القرن 12، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار العرب الإسلامي، ط 2 (بيروت: 1992)، ج78/1.

(72) البيان المغرب، ج270/1، وينظر إدريس، الدولة الصنهاجية ، ج78/1.

(73) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 134.

فيشير ابن عذاري بقوله ((قد شاع ذكرها وأمرها في قبائل المصامدة وغيرها، فكان يخطبها أشياخهم وأمراؤهم فتمتنع لهم وتقول: ((لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كله)) فكانوا يرمونها بالحمق، وكان لها أخبار مستطرفة غريبة، كمثل أخبار الكاهنة، فبعض يقولون إن الجن يكلمها، وبعض يقولون هي ساحرة، وبعض يقولون كاهنة [74]. وبهذا فقد رفضت أن تزوج من أشياخ المصامدة واشترطت الملك فيمن يريد الزواج بها، وبالطبع لم يكن على الساحة المغربية وقتذاك غير الأمير أبو بكر بن عمر رجلاً صالحاً كثير الورع استقامت له الأمور، وانقادت له البلاد ((فخطبها وتزوجها 000 وكان دخوله معرساً بزينب المذكورة في شهر ذي القعدة من عام 460هـ/1067م)[75] فكانت تتطلع إلى تولي الحكم مع من اختارته زوجاً لها، فهي على درجة كبيرة من الحزم والمعرفة بالسياسة والقدرة على سحر الرجال وتطويعهم لإرادتها بما أوتيت من حنكة فائقة وجمال رائق، ولم تفت جمع المال الذي يعد الدعامة الأساسية لأية دعوة ويروي ابن عذاري أنه عندما تزوجها أبو بكر ((وعدته بمال كبير تخرجه له، ثم أدخلته في دار تحت الأرض معصب العينين ثم أزالت العصابة ففتح عينيه فرأى بيوتاً فيها ذهب كثير وفضة وجواهر ويواقيت، فعجب من ذلك أبو بكر بن عمر كل العجب لما عاين من الذخائر والذهب والفضة فقالت له زوجهُ زينب: هذا كله ملكك ومتاعك أعطاك الله إياه على يدي فصرفته الآن عليك، وكان رؤيته له بضوء الشمع، ثم أخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما أدخلته فيه فلا علم من أين دخل، ولا من أين خرج)) [76]. لاشك بأن هذه السيدة كانت ترغب بأن يشار إليها بالبنان، وتثبت للآخرين أنها عمدة الدولة واصل بنيانها، وأنها ستعلو بفضل أموالها، وإلا لما أدخلت زوجها وهو معصب العينين، وتفسير ذلك خشية أن يظفر أبو بكر بالمال ثم يطلقها، وعلى كل حال فزينب النفزاوية لم تكن ترى في هذا – أي أبا بكر – الرجل المناسب لإدارة دفة الحكم لتقوده إلى سلم المجد.

(74) البيان المغرب، ج18/4 .

(75) ابن عذاري، البيان المغرب، ج18/4.

(76) البيان المغرب، ج4/ 18 ؛ وينظر ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص135.

وعليه فقد ظهرت على الساحة السياسية بعد زواجها من يوسف بن تاشفين الذي وجدت فيه ما كانت تتمناه بعد عودة أبي بكر إلى الصحراء سنة 463هـ/ 1070م إذ كانت نفسه تتوق حياة الصحراء خشونة أو زهد أو شغف العيش وأن زوجته تتوق الملك والأبهة والسلطان، فجمع أشياخ لمتونه وكبراءها وعظماءها، وقال لهم ((إن أخوانكم قد أغارت جدالة عليهم وقتلوهم 000 وأنا مسافر – إن شاء الله 000)) وتنازل ليوسف بن تاشفين في غرة ربيع الآخر من سنة 463هـ وقال لزوجيه وهو يشد الرحال ((أني مسافر منك برسم الفتن والحروب ولا يمكنني أن امشي عنك وأنت في عصمتي فإن أنا مت كنت مسؤولاً عنك والرأي أن أطلقك)) فقالت له ((الرأي السديد ما تراه)) فطلقها [77] وقال ليوسف ((تزوجها فإنها امرأة مسعودة)) [78] ثم تزوج يوسف بن تاشفين زينب النفزاوية في شهر شعبأن المكرم من سنة (463هـ/1070م) بعد تمام عدتها ودخل بها فسرت به وسر بها وأخبرته أنه يملك المغرب كله، فبسطت آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموال الغزيرة 00 فجند الأجناد، وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد بنفسه وبتدبير زوجهُ زينب)) [79] وعندما عزم أبو بكر الرجوع من الصحراء إلى بلاد المغرب حزن يوسف حزناً شديداً، فعرفت زوجته ذلك فقالت له (أراك مهموماً مكروباً 000) فتدخلت زينب رأيها الحازم وأشارت عليه بقولها ((إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك فلا تخرج إليه (ولكن) بادر بهدية جليلة 000 فلا يقاتلك على الدنيا فإن الرجل خير لا يستحل سفك دماء 000 على أمرك وتفوز بملك إن شاء الله)) [80] وبالفعل فعلت الهدية فعلها في تلطف الأجواء وتهدئة الخاطر ((فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته فهي التي جسرته

(77) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 20/4 و 21.
(78) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 4/ 21.
(79) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 22/4.
(80) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 4/ 23 و24.

على ذلك كله حتى ملك المغرب اسعد ملك وأتمه نصراً على العدو، ولم يهزم له قط جيش ولا ردت له راية بملك، والله يؤتي الملك من يشاء)) [81].

الملابس وزينة النساء في المغرب

قبل أن نختم موضوع المرأة ووقوفها جنباً إلى جنب مع أخيها الرجل لابد من إلقاء الضوء على بعض الجوانب الاجتماعية المتعلقة بحياة المرأة، لاسيما الملابس والزينة لدى المرأة المغربية، على الرغم من ندرة المعلومات عن الملابس والزينة التي ترتديها النساء، ولكن هناك إشارات لا بأس بها يمكن الاعتماد عليها، وللمرأة المغربية طريقتها الخاصة في ارتداء الملابس، وبها عرفت وتميزت وتنوعت بتنوع البيئة المناخية والاجتماعية لكل أقاليم البلاد هذا من ناحية والعادات والتقاليد الموروثة من ناحية أخرى، فالملابس تتمثل بالألوان الزاهية، وذات الأكمام العريضة، ووضع الحلي التي تلفت النظر لتستقيم مع جمالهن وحسنهن الطبيعي، وهذا الحسن الوزان يصف ملابس النساء الفاسيات بقوله ((ولباس النساء جميل جداً، إلا أنهن لا يرتدين في أيام الحر سوى قميص يخر منه بنطاق لا يخلو من قبح: يلبسي في الشتاء ثياباً عريضة الأكمام ومخيطة من أمام كثياب الرجال، وعندما يخرجن يلبسن سراويل طويلة تستر كل سيقانهن، وخماراً على عادة نساء الشام يغطي الرأس وسائر الجسم، ويحجبن الوجه كذلك بقطعة من قماش لا تظهر منها إلا عيونهن، ويضعن في آذانهن أقراطاً كبيرة من ذهب مرصع بحجارة كريمة بديعة، وفي معاصمهن أساور من ذهب، كذلك سوار في كل ساعد، قد تبلغ زنته مائة مثقال (نحو 350 غرام)، وتتحلى نساء غير الأعيان بأساور من فضة، ويضعن (خلاخل) مثلها في أرجلهن)) [82] ومثلهن النساء التونسيات فكن يرتدين لباساً جميلاً ويتأنقن في زينتهن، وعندما يخرجن يسترن وجوهن بالخمار ويسميه الحسن الوزان (سفاري على عصابة عريضة جداً

(81) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 25/4 ؛ وينظر ابن زرع، الأنيس المطرب، ص 125.
(82) الحسن الوزان، محمد الفاسي، وصف افريقية، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، (الرباط: 1980) ج197/1 .

يعصبن بها جباههن، بحيث تبدو رؤوسهن وكانها رؤوس عماليق)[83] وكانت نساء نوميديا وسجلماسة لا تعتمد فقط على الملابس المستوردة او الجاهزة بل تنسج ثيابها بنفسها من الصوف على شكل أغطية السرير منمقة ودقيقة حتى يظن البعض أنها حرير [84] وكن يتعطرن ويتزين حتى أن العطارين كانت تغلق دكاكينهم في وقت متأخر لتسمح للنساء بالتبضع منهم [85]، فكانت النساء تتزين بلبس الملابس المزركشة الناعمة في المدن والحواضر المغربية كما أشار البكري بوصفه نساء البصرة (تعرف بصرة المغرب) مخصوصة بالجمال الفائق والحسن الرائق وليس بأرض المغرب أجمل منهن [86]. ويصف ابن الخطيب حريم عدوة الأندلس بقوله ((وحريمهم حريم جميل موصوف باعتدال السمن وتنعم الجسوم واسترسال الشعور، ونقاء الثغر، وطيب الشذا وخفة الحركات ونُبل الكلام وحسن المحاورة))[87].

ومن الجدير بالذكر أن المرأة المغربية عموماً اهتمت اهتماماً كبيراً بمظهرها الخارجي الجمالي فضلاً عن اختيار ملابسها وأناقتها والتفنن في زينتها، وكما لاحظنا تنوع أزياء النساء المغربيات بما ينسجم وتنوع البيئة المناخية والاجتماعية لإقاليم المغرب أولاً وبما يتفق مع العادات والتقاليد الموروثة ثانياً.

---

(83) وصف أفريقيا، ج78/2 .

(84) الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج116/2 و 132.

(85) الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج2/ 78.

(86) المغرب في ذكر أخبار افريقية والمغرب، ص 110 ؛ وينظر ابن عذاري، البيان، ج103/1.

(87) لسان الدين محمد بن عبد الله، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي (بيروت: 1980) ط2، ص 41.

The Role of the Moroccan women in the Public Life

Dr. Lamyaa Izudeen Al-Sabaagh*

Abstract

The present paper aims at drawing a picture of women in the western parts of the Arab world in the public life from the time of Islamic liberation to the fifth century A.H. and to shed life on the role women played during this period.

The Arab library neglected the studies that deal with women's life in the western parts of the Arab world in different aspects of life compared with their coun tarparts in the eastern parts who had their fair share of research. There is no doubt that woman history in the Arab west is rich with political and social activities, hence we attempted to introduce their distinctive role.

* Dept of History/ / College of Arts/ University of Mosul.